العطب

قصة بقلم صدقي اسماعيل

- ١ -

عرف (ب ...) في مدينتنا كاتبا قصصيا بارعا ، يرجع مجده الادبي الى سنوات بعيدة . فقد كنا صغارا عندما كان الناس يقرأون كتبه في شغف ويتحدثون عن عبقريته الفذة . وقد أتيح له مثل هذا المجد ، لانه كان الرجل الوحيد الذي تجاوز اسمه حدود مدينتنا الصغيرة . لقد عاشت هذه المدينة مئات السنين مهملة تافهة ، لم يظهر فيها شخص ذو أهمية . والواقع ان ابناءها الخاملين عجزوا حتى عن اكتشاف هذه العبقرية بين ظهرانيهم ، فان تاريخ (ب ..) الادبي يشير الى انه غزا المدينة من الخارج ، وعلى الرغم من انه ولد فيها ، ولم يبتعد عنها الا شهورا قليلة طوال حياته ، فقد بقي مغمورا فيها ، يكتب القصص الرائعة وينشرها في العاصمة دون ان يسمع به احد من سكان بلدته . ولم يكن هؤلاء يعرفون شيئا عنه الا عندما كانوا يسافرون، فكان الاغراب يغمرونهم بالاسئلة عن الكاتب العظيم ... هل رأوه عن قرب ؟ وماذا يفعل ؟ هل هو متزوج ؟ واين يقضي اوقات النهار ؟ وما هو اسلوب حياته ؟ .. وكان مواطنونا يدهشون لهذا الاهتمام . وكثيرون منهم كانوا يسهبون في الحديث عن ابن مدينتهم المشهور ، على الرغم من انهم لم يروه ولم يعرفوه ولم يسمعوا بمؤلفاته ، ولكنهم حملوا اليه الشهرة مع الزمن ، واصبحوا يفخرون بانتمائه الى مدينتهم «الموهوبة» .

ولكن (ب ...) في الواقع لم ينل الشهرة الحقيقية في المدنية الا اثر حادثة كان هو بطلها ، واختلفت المدينة في فهمها أمدا طويلا . وليس من الغريب ان يختلف رأي الناس في مثل هذه الامور، ولكن لنذكر الحادثة اولا ..

انها تبدأ برواية كبيرة ألفها (ب ..) في مرحلة مثالية من مراحل انتاجه الادبي . فكل كاتب على وجه التقريب يمر بفترة يغلب فيها الخيال على الهامه الفني ، ويستمد مواضيع كتابته من أفكار عامة او مشاعر انسانية نبيلة يفيض بها وجدانه الحي ، فيكتب أشياء لا يراها في الواقع ، ولكن يمكن ان تقع ، ويغالي في ابراز مشكلة معينة تنطوي عليها هذه الاشياء ، وهدفه في ذلك ان يضع يده على قضايا الحياة الانسانية في جذورها العميقة مقتديا بالكبار من الادباء القدامى الذين يقال بانهم فتحوا عيون الناس على أعمق مشاكل الحياة ...

وقد اختار (ب ..) موضوعا لروايته ، حياة فتاة رقيقة لا تتجاوز العشرين ، أصيبت بشظية قنبلة شوهت جانبا من وجهها ، وأصابتها بجرح خفيف في ساقها اليمنى ، ومن المرجح ان ذلك قد حدث في الحرب الكبرى او في ثورة ١٩٢٥ ، فالمؤلف يشير الى ان القصة قديمة التاريخ دون ان يضيف شيئا . وكانت الفتاة جميلة مغرية ككل بطلة روائية ، ومن الواضح ان حياتها اصبحت مأساة حزينة ، لاسيما وانها من أسرة غنية ، لا يمكن ان تنسجم فيها أية علاقة مع الرفاه والاناقة وشؤون الحب والزواج ... وقد برع الكاتب الموهوب في تحليل مشاعر الفتاة البائسة وهمومها في صفحات كثيرة تعتبر آية في النثر العاطفي ، وجعل المحور الذي تدور حوله قضيتها النفسية شعورها بالهوان ، فهي تتصور ان الجميع يعتبرونها شيئا معطوبا جديرا بالرأفة والحنان ، ومثل هذا الشعور يخطر كثيرا للاسوياء من الناس ، ومن المحتمل ان يكون (ب ..) قد أراد الكشف عن هذا الجانب الدفين في النفس البشرية لاسيما وانه ذكر في احد فصول الرواية ان تشوه الجسد قد يكون اخف انواع الكوارث التي يبلوها الناس ، وكان هذا الفصل خاصا بتحليل شخصية الاب في الرواية ، وهو رجل جشع يذكر في كل مناسبة ضخامة المصاريف التي تكبدها في معالجة الفتاة المسكينة . واسوأ من هذا انه قال مرة أمامها ان اي مهر يمكن ان يدفع للزواج منها لا يعادل نصف هذه المصاريف ولا ريب ان تصوير هذه العقلية يبرز مشكلة اجتماعية خطيرة ، وقد عالجها الكاتب في رشاقة دون ان يفسد الطابع الفني للقصة ، وتتعقد حوادث المأساة كما يسردها الكاتب ، في علاقة غرامية تنشأ بين الفتاة وبين رجل في الخامسة والاربعين ، كان من اصدقاء أبيها المقربين ، ومن رفاق طفولته ايضا . وكان الجميع يدعونه (العم) ويفتحون امامه ابواب المنزل ، ويحرصون على اكرامه والعناية به لانه فشل عدة مرات في اقتناء زوجة تحنو عليه . ولكن نفسه الشريرة - كما يقول الكاتب - أبت عليه الا ان يغدر بصديقه . ففي ذات يوم فاجأ الفتاة بقبلات حارة في احد اروقة المنزل ، وأصبحت تلك عادته كلما وجد الظرف ملائما . ونهرته الفتاة في بادىء الامر ، ولكنها اضطرت الى الكتمان .. ثم بدأت تستجيب تحت قسوة الحرمان الذي كانت تعيش فيه ، ويبدو ان (العم) أحبها حقا في ولع جارف . ولا ريب ان فشله مع النساء وكهولته الموحشة قد كونا في نفسه شعورا بانه معطوب ايضا ، وانه غير جدير بأكثر من فتاة مشوهة . وبدأ خيال الفتاة يحوم حول مستقبلهما معا ، عندما تجرأ العم على التمادي في هذه العلاقة . وبدأت المواعيد السرية تجمع العاشقين بين حين وآخر في بيت الرجل ، وحين تعرت امامه لاول مرة ، أصبح في نظرها الرجل الوحيد الذي هيأته لها الاقدار . وكان ما لا بد ان يكون . وتوقعت الفتاة كارثة وتوقع الكهل فضيحة . ولكن تسامح الاب كان فوق ما يتصوران ، وهو تسامح معقول. فقد كان صديقه يملك قرية برمتها ولا وريث . وكان الزواج مفاجأة لجميع المعارف . غير انهم اقتنعوا اخيرا بانه عمل حكيم لانهم لم يستطيعوا ان يتبينوا بالضبط من كان الضحية . ولما كانوا جميعا مرضى في نظر الكاتب ، مرضى الشعور بالعطب ايضا ، فقد تأكدوا بعد حين ان الطرفين كانا ظافرين ، الفتاة المشوهة التي اقتنصت زوجا يمنحها الاطفال ، والكهل المسكين الذي حمل الى فراشه انثى لم تبلغ العشرين . والعاقل يستطيع ان يجد في جميع الامور تبريرا منطقيا ، وبتعبير آخر فائدة وحكمة ، وجميع ابناء المدينة كانوا عقلاء في هذا المجال ، اي معطوبين في نظر كاتبنا المثالي (ب ..) .

ولم تنته القصة في هذه الخاتمة السعيدة ، والا كانت حكاية عادية ليس لها معنى ، فالثلث الاخير من صفحات الرواية يبدأ بحادث مفاجىء هو انتحار الفتاة وهي حامل في الشهر السادس ، والمألوف في الروايات (الانتحارية) ان يترك البطل رسالة يوضح فيها اسباب اقدامه على هذا العمل المثير ، ويترك على السطور النارية آثار قطرات الدموع. ولكن (ب ..) جدد في هذه الناحية ، فمحا جميع الاثار ، وكانت الحادثة لغزا محيرا للجميع ، حتى الزوج المسكين وقف عاجزا عن الفهم ، واجرى الكاتب على لسانه هذا التفسير الساذج : « لقد كانت سعيدة ، تنتظر الوليد في فرح ، وتعد له الثياب ، ولكنها خشيت ان يأتي مشوها مثلها»

الخوف من العطب حتى على الاجيال القادمة : هذا هو المحور الذي اراده المؤلف البارع ، ولكنه أقحم في سرد القصة تفاصيل عجيبة لا تمت الى هذه الفكرة بأية صلة ، حرصا منه على ان تكون تحفة فنية قبل كل

شيء . وليس غريبا ان يكون كاتب عبقري مثله على معرفة بأنه لا شيء يفسد الاثر الفني كالتوجيه ، وبتعبير اوضح كأن ينتبه الكاتب الذكي الى ان الفن لا يستخدم كوسيلة لشيء آخر . ومن تلك التفاصيل ان الاب لم يقتنع بأن ابنته ماتت منتحرة ، وتحدث في ذكاء خبيث عن جريمة قتل ، والمتهم الوحيد هو الزوج . ومثل هذه الروح الواقعية تظفر دائما بنصيب الاسد حتى في المأساة . فقد نسجت خيوط الخاتمة على نحو غريب اذ يشعر الزوج المسكين بأنه مسؤول عن موت الفتاة البريئة ، ويكبر تضحيتها بالحياة في سبيل هدف نبيل هو الحرص على صفاء الاجيال الجديدة ، ويزعم أنه قتلها فيدان بالسجن المؤبد ، ويأخذ الاب جميع أملاكه .

— ٢ —

ونشرت الرواية في العاصمة باسم (الرحمة للجميع) وهو عنوان حار يتفق ومضمونها الانساني المؤثر . ويقال بأن طبعتها الاولى نفدت خلال شهرين ، وذلك دليل على عبقرية المؤلف وسحر بيانه ، فالمعروف انهم لا يقرأون في العاصمة الا الجرائد اليومية ، اما في مدينتنا فلم يسمع احد بالقصة في طبيعة الحال .

ومرت عشر سنوات نشر (ب ...) خلالها روايات عديدة ، لم تكن اقل نجاحا . بل انه بلغ قمة الابداع في روايتيه الاخيرتين اللتين منحتاه الخلود — كما يقول الناس — واصبح بهما الكاتب القصصي الاول في بلادنا دون منازع ...

غير ان السنوات بدلت اشياء كثيرة في حياة (ب ...) منها أنه بلغ الخامسة والاربعين وبدأ يكتهل ، وفاتنا ان نذكر انه كان يعيش وحيدا في بيت صغير متواضع ، فأصبح الان يعيش في منزل متعدد الحجرات ، جميل الاثاث كل ما فيه ينم عن الذوق والثراء . ولكن بقي حريصا على عزلته ، وطرأ على المدينة ايضا شيء من التغير ، فأصبحت مركزا لاحدى المحافظات التي أحدثتها اصلاحات الدولة في البلاد . وكان اول محافظ للمدينة يناهز الستين ، فقد كانوا في العاصمة حريصين على ان يستفيدوا من خبرة الكهول في ادارة المحافظات الجديدة . وكان من التقاليد المتوارثة في سياسة الحكام ان يكون رجال الادارة على عتبة الشيخوخة ، فهؤلاء على ما يظن هم أقدر على فهم ما تريده السلطة والرعية في آن واحد ، ولا شيء كالخبرة يعلم الرجال . وكان من الطبيعي ان يتصل المحافظ بالكاتب الكبير (ب ...) لا لانهم يقيمون له وزنا في العاصمة فحسب ، بل لان الاصلاحات الجديدة تنص على رعاية الثقافة والادب . ونشأت بين الرجلين صداقة متينة . والغريب ان (ب...) كان يسعى اليها في حرص شديد ذلك انه — كما يقولون — كان حديث عهد بانتمائه الى الطبقة العليا . ولهذا أهمية كبرى . فقد نشأ (ب ...) في أسرة فقيرة ورث عنها الشعور بهوان البؤس ومذلته . وعلى الرغم من براعته في شعرية النفس البشرية وتصوير خفاياها ، فقد تركت تلك الوراثة في نفسه جراحا دفينة ، ليس من السهل ان تزول . ولا ريب انه انسان قبل كل شيء، والانسان كما جاء في احد مؤلفاته هو أسير ماضيه ، ومن ثم وجد (ب ..) في ارتباطه بالمحافظ سبيلا للتحرر من قيود الماضي ، فكل ما أتيح له من الشهرة والغنى ، لم يكن في هذا المجال ذا أهمية امام اندماجه الفعلي في حياة الطبقة الغنية . أصبح يستطيع ان يقول عن نفسه « ها أنذا واحد منهم بعد أن تمرغت طويلا في الاعتاب » .

وفي احد الايام زاره المحافظ بنفسه ودعاه لتناول طعام العشاء في قصره الفخم. فابتهج (ب ..) كثيرا ، وهذا الابتهاج جدير بالملاحظة، ذلك ان ادبنا المشهور قضى السنوات الاولى من شبابه في احدى المنظمات السياسية التي تنادي بالثورة وتعلن احتقارها للنظام ومن يمثلونه . تلك كانت الهواية المألوفة لدى الشبان في تلك الايام ، وكان لهم ما يبرر ذلك ، فقد كانت البلاد خاضعة للاحتلال الاجنبي ، وقد ورث (ب ...) عن تلك السنوات عقلية ثورية جريئة لا تعرف الحل الوسط ، ومن ثم وقع الان في هذا التناقض الفاضح ، ووجد نفسه موزعا بين وراثة البؤس ووراثة التمرد . ولكن الامور اخذت طريقها في الواقع دون ان تؤدي الى الصراع العنيف الذي كان يؤججه كاتبنا النابغ في نفوس اشخاصه الروائيين ...

— ٣ —

وذهب (ب ...) الى القصر في الموعد المحدد ، ففتحت له باب خادمة جميلة نظيفة الثياب ، فارتبك ، اما لانه كان يصور الخادمات في رواياته على نحو آخر ، فتيات دميمات وما اشبه ذلك ، واما بسبب الاغراء الذي كان يتحرك في نهدي الفتاة البارزين وتقاطيع جسدها الصارخة تحت الثوب الضيق . ولكنه كان اغراء لحظات ، اذ ما لبث (ب ...) ان رأي المحافظ يقبل بنفسه الى الباب للحفاوة به .

وفوجيء الكاتب بمظاهر النعمة والرفاه في كل زاوية . لكم كتب من الصفحات في وصف هذه المظاهر قبل ان يراها ، ولاسيما عندما كان يريد ان يبرز التناقض بين حياة متسول شريد ، ممزق الثياب ، يطرق باب قصر كبير وبين الذين ينعمون بكل شيء في الداخل ، وتصور (ب ...) نفسه هذا المتسول عدة دقائق وفاء لاشخاص رواياته ، ولكن شيئا من المهابة استيقظ في نفسه ، وهو يجلس على اريكة واسعة قرب المدفأة . لم يكن الامر ليقتصر على شعوره بالسعادة والارتياح ، بل غمرته نشوة عميقة بجمال الاشياء المحيطة به . وقال في نفسه : « لم أكن اعرف هذا ، ان الترف جميل ايضا » ذلك انه كان يكتب عن الثراء بروح ناقمة ثائرة ، وكان الاغنياء في رواياته يقترنون دائما بالفباوة وقلة الذوق ، وعلى الرغم من موهبته الفذة في فهم الواقع البشري ، فقد شعر في تلك اللحظة بانه لا يعرف عن هذا الواقع الا قطرة من خضم زاخر بالامواج . وازداد هذا الشعور خلال حديثه مع المحافظ الذي كان على ما يبدو مهذبا لبقا ، مشرق الذكاء ، وخطر للكاتب اكثر من مرة ان يبدي أسفه للمحافظ عن الفكرة السيئة التي كان يحملها عن الطبقة الثرية ، ولامر ما اعتبر مضيفه في ذلك الحين ، ممثلا نموذجيا لهذه الطبقة . وكان الحديث بينهما قصيرا ولكن المحافظ لم يغفل عن الاشارة الى مؤلفات (ب ...) :

— ان الخدمة التي تؤدونها لثقافة المواطنين أعظم من ان توصف ، لاسيما وانكم تهتمون بالتوجيه الاخلاقي ، وهو اكثر ما نحتاج اليه في هذه الايام التي لا تنشر فيها الا الكتب الرخيصة المبتذلة ...

فأطرق (ب ...) خجلا ، وهو يغمغم بكلمات شكر غير مفهومة . ثم امتلكه شيء من الاضطراب حين اردف مضيفه الكبير :

— ولكنني مع الاسف لم أقرأ بعد شيئا من رواياتكم العظيمة على الرغم من انها جميعا في مكتبتنا ... تعرفون انها الاعمال الهامة ، لا تمنحني ساعة راحة .. ولكن الاولاد يقرأون كثيرا ...

وامتعض (ب ...) من هذه الكلمات الاخيرة التي كشفت له فجأة عن بعض الفساد في عقلية المحافظ ، ساءه ان تعتبر مؤلفاته شيئا يتسلى به الانسان في اوقات الراحة ، وهو الذي يذيب روحه في سطورها ، وساءه ايضا ان يقترن اسمه بالاولاد ، وخيل اليه في بادىء الامر ان هذه العبارة تعني السخرية به وبمؤلفاته ، غير أنه أبعد عن نفسه هذا الشعور عندما عرف هؤلاء الاولاد ، فبعد فترة وجيزة ذهب به المحافظ الى غرفة الطعام ، ووجد نفسه امام مائدة مثقلة بالطعام الشهي والاواني الجميلة، وتعرف ببقية افراد الاسرة . كان هناك شابان وسيمان يبدو عليهما الخجل ، وامرأة أنيقة يفيض وجهها المكتهل بملامح العذوبة والرقة ، انها زوجة المحافظ . وقد قالت له حين قدم اليها :

— انك تعيش بيننا منذ أمد طويل .

فشعر بالفرح ينبع من اعماق نفسه . وجلس الجميع حول المائدة ، وقال المحافظ وهو يلتفت حوله :

— وأين نجوى ؟

فقالت الام :

— انها قادمة ، ولكنكم تستطيعون ان تبدأوا ...

وفهم (ب...) ان نجوى هي الفتاة الوحيدة في الاسرة ، فقد لاحظ ان المائدة كانت معدة لشخص آخر ، والتفت الى المقعد الخالي قائلا في سذاجة :

ـ نستطيع الانتظار ...

ولم يتوقع ب ... ان تعتبر هذه الكلمة العادية دعابة جميلة ، فقد ضحك لها الجميع في اعجاب . واحمر وجه الكاتب خجلا . لعله خشي ان يكون قد قال شيئا نابيا على هذا الجو المتزن ، وسره في الوقت نفسه ان هذه الاذواق الناعمة قد أضفت على كلماته طابع العفوية والعذوبة ، وانقذته الام من الارتباك ، فقد قالت في لهجة تفخر بصراحتها :

ـ نجوى في الواقع تشعر بالخجل ، وقد لا تأتي الا بعد ان تقنع نفسها بأن الاستاذ (ب ...) رجل لا يؤذي احدا ...

وضحكوا من جديد ، وارتبك الكاتب وهو يبحث عن كلمة مناسبة ، وقال المحافظ :

ـ الحقيقة انها الشهرة . اذكر انني عندما كنت صغيرا ، كنت أتهيب المشهورين وقد رأيت احد الوزراء مرة في الطريق ، فشعرت انني في عالم آخر ، وقد عرفته من صورته التي كانت تنشرها الجرائد ...

وقال (ب ...) وقد اعتقد ان المحافظ كان يسأله رأيه في سبب ذلك :

ـ الحقيقة ان الخيال هو الذي يلعب الدور الاول في الشهرة ، فالناس بطبيعتهم لا يرضون عن حياتهم كما هي ، فيتصورون ان المشهورين هم أحسن حالا . ولذلك يهتمون بهم ، وفي رأيي ان الناس عادة لا يحبون الشخص المشهور .

فقال المحافظ :

ـ هذا صحيح في بعض الاشياء ، فالسياسي المشهور يثير نقمة الاخرين غالبا ، لان علاقته بهم تقوم على الحذر والخوف ، اما في الادب فالامر يختلف ...

فقال (ب ...) متجاهلا هذه المجاملة :

ـ الواقع ان الشهرة نقمة على صاحبها في كل حال ، صحيح ان الانسان يفرح حين يتحدث عنه الاخرون ، ويهتمون به ، ولكنه يدفع ثمنا غاليا هو حريته . انه مضطر الى ان يكون دائما عند حسن ظنهم ، واحيانا يكون حسن الظن ان ينافق ويظهر على غير حقيقته ، وذلك في رأيي أسوأ انواع العبودية ....

وأخذ الجميع يُهذه الكلمات على الرغم من بساطتها . وسر (ب...) انه قد أجاد الحديث ، ولكنه كان يشعر بأنه قد أحرج امام نفسه ، فقد كان حريصا على ان ينال اعجاب الحاضرين بأي ثمن ، ان يؤكد لهم انه منبع للحكمة والعقل النير .

وقالت زوجة المحافظ :

ـ ولكن الناس لم يعودوا يكترثون بآراء الناس ، انهم يبحثون عن الشهرة في جنون ، حتى ولو كانت فضائح يخجل منها الانسان .

فقال (ب...) وهو يحرص على منطقه الهادىء :

ـ اولئك ضعاف النفوس ، فالانسان يريد الضوضاء ، عندما تكون نفسه مقفرة وتكون حياته خالية من كل سعادة وغبطة ..

وتوقف عن الكلام فجأة . وقد رأى الجميع ينظرون الى الباب الداخلي، والتفت فرأى فتاة غضة يتألق وجهها تحت ضوء الكهرباء الابيض ، وقال المحافظ :

ـ نجوى .. اقتربي يا بنيتي ليس بيننا غريب .

ونهض (ب...) يحييها ، فاحمر وجهها خجلا ومدت يدها تصافحه وشعر (ب...) بدفء راحتها الناعمة ، وهم بان يقول كلمة ، ولكنه لم يستطع وخلال العشاء انتشرت بين الجميع احاديث تافهة عن انواع الاطعمة وغيرها . وكانت نجوى صامتة تضحك في هدوء حين يكون من المناسب ان تضحك ثم تعود الى صمتها . وكان من الواضح انها تتحفظ في كل شيء ، ولكن (ب..) رأى في هدوئها عفوية جميلة ، وان لم يجرؤ على النظر اليها مرة واحدة ، وعندما نهضوا الى غرفة الجلوس، بدأت المفاجآت الغريبة تصدم (ب..) فقد لاحظ ان نجوى تعرج قليلا ، وتوهم في باديء الامر أنه مظهر للتشنى المغري الذي انتشر في مشية الفتيات ، ذوات الارداف الفاضحة . ولكنه تأكد بعد قليل ان في ساقها عرجا خفيفا ، وعندما اتيح له ان يتبين ملامح وجهها في شيء من الوضوح فوجيء ايضا بآثار تشوه تنحدر من اسفل الوجه الى العنق اثار حرق او جرح قديم ، وازدحم في نفسه شعور غامض بالاشمئزاز والشفقة في آن واحد ، ولكن هذا الشعور ما لبث ان تبدد عندما الفت عيناه رؤية هذه الاثار . والغريب انه الف بسرعة عجيبة ، فقد انصرفت حواسه فورا الى انثناءات الجسد الفتي ، والبشرة المغرية .

ـ ٤ ـ

توثقت روابط الصداقة بين (ب...) واسرة المحافظ ، واصبح يزورها مرة في الاسبوع على الاقل ، وبدأ افرادها يتسللون الى حياته الداخلية واحدا تلو الاخر ، وقد احب المحافظ في باديء الامر ، واطمأن الى شخصيته الذكية المحببة ، ولا نعرف اذا كان من اسباب التآلف الحار ، ان الناس اصبحوا يتحدثون عن هذه الصداقة ، ويتقربون من الكاتب الكبير في احترام جديد اقوى بكثير من احترامهم لنبوغه الادبي، وحاول بعضهم ان يوسطه لدى المحافظ في بعض المصالح الشخصية ، ولكن (ب..) قطع الطريق منذ البدء على مثل هذه المحاولات . فالواقع انه لم يتخلص نهائيا من تانيب الضمير الذي كان يعاوده احيانا مذكرا اياه بالروح الثورية التي فقدها امام اغراء الجاه والنفوذ .

ثم ارتبط بصداقة فكرية متينة مع الابن الاصغر ، وكان شابا في الثامنة عشرة من العمر ، ينسب الى احد الاحزاب التقدمية ـ كما كان يقول ـ ويتحدث باستمرار عن قضية الشعب والعدالة والثورة على الاستعمار وما الى ذلك ، ومن المفيد ان نذكر ان الابن الاكبر كان حذرا تجاه الكاتب فقد ادرك ب.. في كثير من المناسبات ان هذا الشاب قد جبل على العقلية الارستقراطية ، وانه يمثل طبقته اكثر مما يمثل نفسه .. وتلك هي عبارة (ب...) في وصفه ، ومن ثم فقد بقي بعيدا عنه .

ولم يأت الربيع حتى كانت نجوى بشخصيتها الهادئة واغرائها الوادع تنساب في كيان (ب..) كما تنساب اشعة الصباح في غابة مزدحمة بالظلال ، وكان ب.. قد عرف عن الفتاة الشيء الكثير ، على الرغم من انه لم يحدثها الا قليلا ، عرف انها اصغر الابناء ، وذلك واضح منذ البداية ، وانها سقطت مرة عن السلم وهي طفلة فكسرت رجلها ، وكان من الممكن ان تبتر ساقها لولا عناية الاطباء ، وعرف ايضا أنها قبل عامين او ثلاثة كانت في زيارة احدى لداتها فحدث حريق في المنزل كادت تذهب ضحيته ، وترك في وجهها وعنقها هذا التشوه الحزين . وعدا هذا ، فان هذه الحادثة قد افقدتها كل نزعة الى الخروج من البيت ، فاصبحت اشبه بالسجين الذي يرفض الحرية ـ وهذا التشبيه ايضا جاء على لسان (ب..) ولا ريب انه قد فكر بها طويلا ، وكان من الممكن ان توحي اليه بقصة جديدة لولا انه كتب قصة مماثلة من قبل ، وهنا تكمن النقطة الرئيسية ، فمنذ ان ادرك (ب..)هذا التشابه الغريب بين نجوى وبطلة قصته (الرحمة للجميع) تغير كل شيء في نظره ، وقد قال لنفسه اكثر من مرة ((كم في الحياة من مصادفات غريبة !)) وبدأ هذا التغير في ميله الشديد الى الاختلاط بالاخرين والتحدث اليهم ، وكان يخيل اليه انه قد خنق الميل الاجتماعي في نفسه طوال الاعوام المديدة التي قضاها في العزلة . واصبح يعتني بمظهره امام الناس ، ويحرص على ان ينتزع اعجابهم بثيابه الانيقة ومجاملاته الطلية واحاديثه الشيقة ، واستطاعت زوجة المحافظ ان تدخله بسهولة في مشاكل المجتمع الراقي فاصبح يجد متعة في التحدث عن التفاصيل التافهة التي تشغل النساء المترفات في العادة : الفضائح واخبار الخطوبة والزواج والطلاق والنزاعات العائلية ، وما الى ذلك مما ينطوي عليه عالم النميمة والاغتياب ، والغريب ان هذه الامور كانت تميز الاشخاص التافهين في رواياته الانتقادية ، وانتبه ذات يوم الى التبدل الاكبر الذي طرأ على نفسيته . ففي احد ايام الربيع ذهب في المساء الى قصر المحافظ ، وكان الجو دافئا والسماء صافية، والنسمات الوادعة توقظ فيجوانحهاحساسا عميقا بجمال الحياة. ولامر ما اخذ معه باقة كبيرة من الورد الابيض . ولا نعرف اذا كان قد

ـ التتمة على الصفحة ٤٩

العطب

ـ تتمه المنشور على الصفحة ٢٨ ـ

تذكر ان بطل قصته (الرحمة للجميع) الكهل الذي تقدم ذكره كان ، كما صوره الكاتب ، مولعا بالورد الابيض ، وكان يحرص على حمل باقة منه الى بيت صديقه كلما سنحت له الفرصة. وضغط (ب...) زر الجرس وهو يتوقع ان يرى الخادمة ، ولكنه فوجيء بنجوى تفتح الباب ، ولم يبد عليها انها ارتبكت ، فقد استقبلته بابتسامة عذبة ، وطلبت اليه الدخول ، ولم يتردد (ب ...) ، فهو لم يعرف ان المنزل كان خاليا من الاخرين .

وقدم لها الورد وهو يبتسم ، ثم مضى الى غرفة الجلوس كما هي عادته ، ورجعت نجوى بعد قليل وهي ترحب به ، وكان واضحا انها ارادت ان تخبره بأنهم خرجوا جميعا ، ولكنه لم يمنحها فرصة لذلك ، بل انطلق يتحدث اليها عن امور شتى في شغف وحنان ، ولا ريب أنه رأى من واجبه ككاتب ناضج ان يغتنم هذه الفرصة ليبعث في نفسها بعض العزاء ، او انه اعتبر هذه المناسبة ـ دون ان يشعر ـ بداية لشيء آخر ، وهذا هو الارجح ، فقد بدا الاضطراب في كلماته الاولى ، وكان هو نفسه يجهل سر هذا الاضطراب ، غير ان كل شيء كان يمكن ان يبدو واضحا ، لو ان ذاكرته الروائية اسعفته اذ ذاك ونقلت اليه هذا الموقف نفسه كما صوره في قصته ، فقد جاء في الصفحات البارزة من الرواية، ان الكهل قد التقط حبه لاول مرة في زيارة من هذا النوع ، كان المنزل فيها خاليا من جميع الاخرين ، وقد قدر الكاتب ان « شخصيته » الروائية لا بد من ان تكون على شيء من الاضطراب ، وان لم يكن متأكدا من ذلك، لانه لم يكن قد عاش هذه التجربة بعد . وكانت الرواية ـ كما قلنا ـ مثالية في طابعها الفني لا تشترط التقيد بالواقع .

وكان الحديث بين (ب ...) ونجوى شيقا في بادىء الامر ، فقد كان كل منهما يضفي على هذا اللقاء شيئا من الشعر والعاطفة ، غير ان الساعة الاولى انطوت بسرعة ، وأحس (ب ...) اضطرابا مثقلا بالهم يغزوه رويدا رويدا كما يحدث احيانا للانسان عندما تكون امامه فرصة يعرف انها ضائعة حتما بسبب تردده وخوفه . فقد كان (ب ...) في الواقع يخاف الخطوة التالية في هذا اللقاء ، والغريب انه كان على يقين من ان هناك خطوة تالية . فهل كانت تعيش في نفسه تجربة بطله ؟ الحقيقة ان موقفه الان يختلف كل الاختلاف ، فبطل القصة الكهل ـ كما صوره ـ لم يعرف الاضطراب الا في الدقائق الاولى من اللقاء ، ثم اقترب من الفتاة وجلس الى جانبها ، فأمسك بيدها في حنان ، وعندما حاولت صده بدافع الحياء او شيء آخر ، طوقها بذراعيه وقبلها ، وحاولت الافلات منه ، ولكنه ازداد اصرارا ، وجعل يقضم شفتيها في عنف متوحش حتى اضطرت الى الصراخ . وفي اليوم التالي تظاهرت بالغضب ولم تلتفت اليه ، غير انه لم يأبه بذلك ، بل استطاع ان يفزوها بتصميمه وجرأته ، كان الجنس او الحب البقية الباقية من معنى وجوده كانسان ينحدر .. الشجرة الراسخة التي تجعله يتذوق شيئا من جمال الحياة . ذلك هو وضع بطل القصة ، اما (ب ...) فقد كان بعيدا عن مثل هذا السلوك ، صحيح أنه قد يكون هناك بعض الاختلاف في الظروف ، فالواقع ليس كالخيال ، ولكن أمرا ما دفع (ب ...) الى التساؤل عن ضعفه وتردده عندما ادرك الوضع الذي هو فيه ، وكان ذلك عندما سألته نجوى خلال حديثهما المتشعب .

ـ كيف تختار الاشخاص الذين تكتب عنهم ؟

فأجاب :

ـ عندما أشعر بأنهم جديرون بالحب ، ان الحب هو اول شروط الكتابة .

فقالت :

ـ وهل تحب الاشرار ايضا ؟ ان جميع القصص تميز بين نوعين من الناس خبثاء وطيبين ...

فقال وهو يتأمل شفتيها اليانعتين :

ـ انها نظرة قديمة في الفن الروائي ، وانا لا اؤمن بها في الواقع، فالانسان هو الانسان مجرما كان او قديسا ، والقصة الجيدة هي التي تنثر المحبة على الجميع وفي رأيي ان كل انسان يمكن ان يكون كل شيء في آن واحد ، في الماضي كانوا يقولون الانسان اما هذا او ذاك ، واقرب الى الحقيقة ان نقول انه هذا وذاك معا .

فتألقت عيناها ببريق من الاعجاب الذكي ، وشعر (ب ..) بفرح غامر ولكنه انتبه فجأة الى خطورة الرأي الذي أبداه ، لقد حرص في جميع رواياته على تصوير الانسان في « شخصيات » ثابتة تطرأ عليها التغيرات بصورة عارضة ، وهذه التغيرات نفسها كانت في فن (ب...) وسيلة للكشف عن طبيعة راسخة في نفس كل انسان ، وقد كتب احد النقاد عنه « ان الانسان في نظر (ب ...) هو ما كان في البدء ، وليس ما يكون وحين يعطي النفس البشرية مبررات لان تكون كل شيء ، انما كان يناقض كل ما في كتابته من أصالة . ولكنه لم يتراجع عن هذا الرأي في بقية حديثه مع نجوى . ولا ريب ان كان في تغير جديد . فقد كان هذا اللقاء شرارة اولى في عاطفته الوليدة . وقد تبين ذلك عندما حرص على ان يغادر المنزل قبل ان يأتي أحد . لقد عاودته نفحة من غبطة المراهقين حين يتعمدون اضفاء الغموض على ما يقومون به من اعمال .

ـ ٥ ـ

وفي احدى الليالي انفرد (ب ...) ثانية بنجوى ، دعي الى العشاء في القصر وكان من المألوف ان يمكث طوال السهرة ، وحدث ان استدعي المحافظ لامر عاجل ، وكانت الام تشكو الصداع فأوت الى فراشها ، وتذرع الاخوان بعد العشاء ، بسبب ما ، وخرجا . ولم يبق للضيف الكبير الا الفتاة . وكانت صدفة روائية بكل معنى الكلمة ، وشعر الكاتب بيد القدر تنسج له شيئا من الواقع كما كان خياله ينسج مشاهد الروايات . ومن البديهي أنه أحب هذه الصدفة ، وان كان خياله الخصب لم يزين له هذه المناسبة بأكثر من الاستمتاع بالحديث . ولم يكن قد انقضى على اللقاء الاول اكثر من اسبوع ، غير انه كان فترة حاسمة من حياته الداخلية ، فقد هيمن على نفسه انفعال غريب منذ ان غادر المنزل في ذلك اليوم . وشعر بامتلاء طارىء في خواطره وامانيه ، وأحس لاول مرة في حياته ان المساء يحمل شيئا من الكآبة والهم ... كانت ساعات المساء اكثر أوقات الزمن اغبرارا في عينيه ، وقد كان يتعمد وضع اشخاص رواياته في الاماسي الحزينة ، لكي يعبر عما يعتلج في نفسه عادة من اضطراب في هذه الاوقات . اما الان فقد تغير كل شيء وكان من عادته ان يكتب ساعتين قبل منتصف الليل ، وقد قضاهما ذلك المساء في تخيلات شعرية رائعة ، اعاد فيها عشرات المرات خيال نجوى يضمها بين ذراعيه او يقبل شفتيها الجميلتين ...

والغريب ان جميع هذه التصورات التي تنم عن رغبة جنسية عارمة قد ذابت عندما رأى نجوى في هذا اللقاء الثاني ، لقد بدت له في هدوء الليل أقرب الى ملاك رحيم يغمر فضاء حياته بهواء نقي يوقظ في الجوارح كل نزعة الى الحياة البريئة . ولا ريب ان مثل هذا التغير لا يمكن ان يمر عبثا في نفس كاتب مرهف مثل (ب ...) فقد سأل نفسه وهو جالس امام الفتاة : « انه الخوف المتوارث في سلالتي ، لا ريب في ذلك ! » واستعاد في لحظة خاطفة ملامح الطبيعة النفسية التي تميز هذه السلالة ، الشعور بالاثم والخوف من التجربة . لقد قدر له ان يخرج الى العالم من اسرة فقيرة ومتدينة في آن واحد ، يجري في دمائها الخوف من الفقر والخوف من الخطيئة . وعلى الرغم من أنه جسد هذا الخوف

المزدوج في كثير من اشخاص رواياته فانه لم يتحرر منه ، وكان يسعر بذلك احيانا ويقول لنفسه في اقتناع جازم : « لا بد انه شيء في الدم » ولكن هذا لم يكن يقلقه كثيرا ، فسرعان ما كان يبدد كل اضطراب بتبرير هذه الوراثة . « لو لم أكن على هذا النحو لاصبحت متحللا فاسد الاخلاق » وقفزت خواطره ـ وهو أمام نجوى ـ الى كلمة وضعها ـ دون ان يشعر ـ على لسان احد ابطاله : « اما ان يكون الحس الاخلاقي منذ البدء ، واما ان لا يكون على الاطلاق » والبدء هو الدم والوراثة .

وقالت نجوى وهي تنهض : « ما رأيك في كأس من الشاي ؟ » ربما كان وجومه في تلك اللحظة قد أشعرها بأنها لم تحسن مجالسته . فابتسم في شيء من الاعتذار المتكلف ، وسارت نجوى الى المطبخ ، وعندما ادارت ظهرها ، لحظ (ب ...) ان العرج يترك اثرا واضحا في حركة جسدها ، وان ردفيها يهتزان في اغراء ، وان هذه العاهة تلفت النظر الى ساقيها ، وشعر باشتهاء طارىء ، وعندما توارت عن عينيه ، خطر له ان العطب يمكن ان يكون مثارا للرغبات العنيفة ايضا او محرضا على الحياة ـ حسب التعابير التي يستخدمها عادة في مؤلفاته ...

وابطأت في صنع الشاي او هذا ما خيل اليه ، فرأى نفسه ينهض ويمضي في خطى مضطربة الى المطبخ ، ورآها هناك تتناول الابريق عن النار ،.والتفتت اليه دون ان تبدو على وجهها ملامح الدهشة المتوقعة، بل تظاهرت بعدم رؤيته ، ولحظ في عينيها اغضاءة ذات معنى ، وتصور أنها تنظر خلسة الى حركات خطواته ، ولا يعرف هو نفسه كيف حدث بعد ذلك ان وقف وراءها وأمسك كتفيها بيديه ، فلم تلتفت بل حاولت التملص في هدوء ، وغمغم بعبارات هامسة لم يتبين هو كلماتها . وادارت رأسها فجأة ، وكان في عينيها بريق دافىء ، فضمها (ب ...) الى صدره ، وقبل شفتيها في لهفة ضارية ، فأجهشت ولكنها لم تقاوم . وخيل اليهما معا انهما قد أحدثا جلبة ، في حين كان الصمت يخيم على المنزل ، فتخلصت من ذراعيه في شيء من الهلع ، ولكنه لم يبتعد الا بعد ان غمر بالقبلات مكان الجرح في عنقها ....

ـ ٦ ـ

وتعاقبت بعد ذلك المواقف المثيرة . وعندما أتى الصيف كان العاشقان قد وصلا الى الفصول الاخيرة . لم تكن تفاصيل الحوادث الواقعية في البدء مطابقة تماما لما جاء في الرواية ، فقد كانت نجوى تلعب دورا في تقرير هذه التفاصيل، ولكن منذ ان بدأت تزور (ب...) في بيته المنعزل ، أصبح كل شيء رهن مشيئته او بمعنى آخر اصبحت الامور تسير وفق نزوات الشخص الروائي الذي سبق (ب ...) في هذا المضمار ، ولكنه شخصية خرافية ابتكرها خيال الكاتب ، ومن ثم فان (ب ...) كان يشعر بأنه ملزم بأن يفعل مثلما كان يفعل بطله الفحل . ويبدو انه ربط بهذا الالتزام كل جدارته كأديب صادق مع نفسه ، والغريب انه كان يغالي في ذلك الى أقصى حد. فكان مثلا يختار اوقات المواعيد وفق وقائع الرواية ، وينسق المائدة والازهار واثاث المنزل حسب الاوصاف التي ذكرها في فصول الكتاب ، وقد اكتشف في ذلك اخطاء كثيرة ، لا ينتبه اليها القارىء العادي ، منها مثلا ظهور البنفسج والورد الابيض في اواخر الصيف وغياب الشمس في أيار عند الساعة الخامسة ، وما الى ذلك ....

غير ان شيئا غريبا طرأ على هذه العلاقة لم يحسب له حسابا ، لا في الرواية ولا في الواقع ، فعندما شعرت نجوى بالجنين يتحرك في احشائها لم تخش الفضيحة ـ كما فعلت بطلة القصة ـ ولم يخطر لها ان للمشكلة حلا ، وعندما عرض عليها الكاتب فكرة الزواج رفضت في عبث غير متوقع ، وقالت له : « لماذا الزواج ما دمت قد حصلت على الطفل » .. فأجابها : « ولكنهم سوف يكتشفون ذلك بعد قليل وعندئذ ... » فقاطعته قائلة : « وماذا يستطيعون ان يفعلوا ، سوف اصارح أبي بالامر منذ الآن ، وسوف يدبر الامر بالنسبة للجميع في هدوء وحزم ... »

وشعر (ب ...) بأن هذا الموقف اهانة له . وترددت في ذهنه افكار قاتمة ، انها ترفض الزواج منه لانه أقل شأنا منها ، لا ريب في ذلك ، لقد كانت تعبث به ولا شيء آخر ، ومن المؤكد انها تحتقره في اعماقها ، وقد كان بالنسبة اليها مجرد وسيلة لا اكثر .

ودفعته هذه الافكار الى حد الارتياب في سلوكها ، ففي احد الايام خطر له ان استسلامها بمثل هذه السهولة يدل على رعونة واستهتار في طبيعتها ، وان من الممكن ان يكون لها عشاق آخرون . وتضخم هذا التصور في ذهنه واتسع حتى أصبح اقرب الى الحقيقة . وأسعفته مؤلفاته الماضية بالدلائل والبراهين ، فقد كان يضع الطبقة الارستقراطية ـ على حد تعبير جيله ـ في حضيض التحلل الخلقي ، فلماذا لا تكون نجوى نموذجا لطبقتها ؟ وما هو الالهام ان لم يكن صادق الحدس ؟ وشعر (ب ...) بغبائه اكثر من مرة لانه خدع بالمظاهر الزائفة، لقد بدل نظرته منذ اللقاء الاول بالمحافظ ، وكان غبيا من دون ريب . فها هي الوقائع تؤكد رأيه الاول ، والغريب ان هذه الوقائع تركزت كلها في سلوك نجوى ، فمنذ ان عرض عليها الزواج أصبحت تتجنب النظر اليه حين يأتي الى القصر ، ورفضت جميع مواعيده في جفاء كان يزيده شوقا اليها ولهفة ، وأدهشه هذا الموقف العجيب ، وبدا له لغزا لا سبيل الى حله ، وكان قد قضى الشطر الاكبر من حياته في منطق متماسك ليس فيه اية فجوة تشير الى التناقض ، كانت الحياة كلها بالنسبة اليه حادثة كبرى ، متعددة الجوانب ، كل شيء فيها واضح مبرر ، كانت اشبه بجسم حي ، رتبت اعضاؤه ليقوم كل منها بوظيفة تجعل وجوده معقولا . اما الآن فان الامور كلها قد اضطربت في نظره ، رأى نفسه أشبه بطفل ليس في عالمه الا الدمى الصماء . أما كان يصور اشخاصه جميعا كائنات مستقرة يلعب بها كما يريد ؟ ولكن احداها الآن تقاوم في ضراوة ..

وكانت ايام الجفاء قاسية صعبة لازمه فيها الارق والشعور بالشقاء ، وكان يخيل اليه احيانا ان نفسه تنضح بالعفونة ، وان الخواطر تتموج في ذهنه قذرة ملوثة ، وحاول مرارا ان ينسى كل شيء ، ان ينسحب في حزم من هذا المأزق ، ولكن رغبته العارمة في نجوى كانت تفقده كل ارادة وتصميم ، وعلى الرغم من انها كانت رغبة جسدية في الظاهر ، فقد كان هناك شيء اكثر خطورة بالنسبة اليه ، هو فهم طبيعة هذه المرأة لكي يستطيع ترويضها على الخضوع له . ولم يصدق انها تستطيع ان تقطع كل علاقة به ، فقد اصبحت بينهما وشيجة حقيقية لا سبيل الى انكارها هي الطفل ، كان كلما ذكر هذه الحقيقة ، امتلكه حنين الى نجوى ، اشبه بالرحمة الدامعة . وقال لنفسه : « اذا كانت حمقاء رعناء ، فليس من المنطق ان اتخلى عنها ، وهي في طريق الامومة » .

ولام نفسه في ندم على جميع خواطره القاتمة ، وتساءل مرة : «لماذا لا اكون أنا المخطيء في كل شيء ؟ . انني أجبن من ان أعيش أفكاري . لقد كان عباس ـ وهو اسم البطل في قصته « الرحمة للجميع » اكثر شجاعة مني واقرب الى النبل ، كان منطقيا في كل شيء ، اخلاقيا في كل تصرفاته ... فهو لم يتراجع ، بل تحمل المسؤولية كاملة ... أما انا، فما أزال في خوف من الواقع .. اترك الامور تحدث دون ان أمد يدي..

تطلب « الاداب »

في الجزائر من :

دار الكتاب

لصاحبها السيد خالد القرطبي

نهج كولو غلي رقم ٤ ـ بليدة ـ الجزائر

كما لو أنني عنصر مشلول لا وزن له في حوادث الحياة .. ولا ريب انه العطب الذي ينمو في كياني .. لا يرغمني على التقهقر فحسب ، بل يصور لي الاشياء على نحو غير واقعي يريبني فيه كل فعل ، ويقاوم ما اريد .. »

وخطرت له كلمة رمزية لاحد الشعراء المعاصرين، يقول فيها : « بين الارادة والفعل تنهمر الظلال » .. وقد توج بها (ب ...) احد فصول روايته القديمة . وهو الفصل الذي اراد ان يبرز فيه تردد الجسد وعجزه عن مجاراة الرغبة ، كيف ارادت بطلة قصته حياة الصحة والقوة، ولكن العطب كان يترعرع في خلايا جسدها . وها هو الكاتب قد وقف أمام هذه التجربة في الواقع الحي . لقد انتحرت البطلة لان الظلال كانت تتسع وتمتد . وكان الموت حلا وحيدا تلجأ اليه الارادة الانسانية حين تقف عاجزة امام الواقع ...

هذا هو الدرس المثالي الذي اراده نهاية للقصة ، وقد شعر الآن انه مسؤول عن هذه الموعظة ، وان الانفعال الحزين يبعث في كيانه خللا يشبه تفسخ الجسم الحي بفعل المرض ، ومن ثم فهو يريد ان يستعيد التماسك الداخلي الذي أتاح له خلال الاعوام الماضية ان يراقب الآخرين ويصور أمراض الحياة ، في حصافة الباحث الواثق من صواب حكمه . وقد أتيح له ان يكون كاتبا ناجحا لانه أحب الحياة ، ومن البديهي ان تكون الاستجابة للحياة حله الوحيد للازمة التي يعانيها . ذلك ما يريد . ولكن كيف يعمل ، وهو يعرف ان للاخرين ايضا حلولا اخرى ، انه الان يريد الزواج ، وعليه ان ينتصر ، ينبغي اولا ان يرغم نجوى ، والارغام هو وحده الكلمة المناسبة ، لان رعونتها أصبحت في نظره اوضح صورة للمرض، والمريض لا يؤخذ رأيه في طرق العلاج، ولكن الكهولة لا تستطيع ارغام الشباب على شيء ، ومن ثم توجه الى صديقه العجوز ، وقد حشد في نفسه كل ما اكسبته الثقافة من بلاغة في عرض الافكار وقوة في الاقناع .

ولامر ما طلب مقابلته في دار الحكومة ، لقد كان يتوهم ان جو القصر يزدحم بنظرات السخرية وضحكات الاستهزاء .

وتلعثم (ب ...) ألف مرة ، واضطرب ، وشحب وجهه اكثر ، وهو يعرض الفكرة على المحافظ . لقد أعاد دون ان يشعر موقف بطله ، ولم يخالفه الا في شيء واحد هو ان الشخصية الروائية لمحت لوالد الفتاة بالعلاقة الآثمة ، أما (ب ...) فلم يكتف باخفاء الامر فحسب ، بل استخدم موهبته كلها لكي يضفي على القضية طابع الحادثة الاجتماعية السليمة التي حرص فيها على مراعاة جميع التقاليد ، ولكنه مع هذا كله فوجيء بجواب مهين ، لقد جرحه اولا ان المحافظ كان يستمع اليه كما يستمع الى مواطن مظلوم يسترحمه في قضية . وكان اضطراب (ب ...) اذ ذاك مما أثر هذا الموقف ، فقد كان الجواب في اشد مرارة، قال له المحافظ وقد تغضنت اسارير وجهه :

ـ لم أكن اتوقع منك هذا الطلب ، ويبدو ان مخيلتك تصور لك اوهاما كثيرة . اذا ظننت ان زيارات الصداقة تبرر لك مصاهرتنا فانت على خطأ كبير ، ويبدو ان ثقافتك العالية يعوزها الكثير من التهذيب فلو افترضنا أنني رضيت بما تريد ، هل تساءلت عن موقف نجوى ؟ من المؤسف انك تفضل ان تنهي صداقتنا بمثل هذه السهولة ..

ومد المحافظ يده مودعا ، دون ان ينهض ، بل كان يبتسم في سخرية .

ونهض (ب ...) وقد أصبح وجهه في بياض الثلج ، والغريب انه لم يشعر بالاهانة بل اضطربت في نفسه فكرة واحدة هي الكشف عن الحقيقة . شعر بموجة من الحنق الذي يبعثه جمود الاغبياء أحيانا في نفوس الاذكياء ، واراد ان يشرح للمحافظ حقيقة الموقف ، ولكنه آثر الصمت ، وقال لنفسه وهو يتوجه الى الباب : « مهما يكن من أمر فقد امتلكتها » وهذا الشعور كان عزاءه الوحيد وهو الذي ردعه عن كل جواب عنيف ..

ـ ٧ ـ

في مساء ذلك اليوم قال المحافظ لاسرته ان (ب ...) لن يدخل القصر بعد اليوم ، وعقب على روايته ما حدث بقوله :

ـ يظهر ان هؤلاء الكتاب يصدقون ما يكتبون ، او ان عقلهم يختل مع الزمن .

وقالت نجوى وقد شحب وجهها :

ـ مسكين ، كيف خطر له ان يفعل ذلك ، وقد بدأ الشيب في شعره ؟

فضمها المحافظ الى صدره في حنان ، ولكن مخيلتها في تلك اللحظة ، كانت تطوف حول وجه الكاتب المسكين ، وتعيد اليها صورا مغرية من ذكريات الحب القديم ، وقد لجأت الى مخدعها في وقت مبكر، وارتمت على الفراش وهي تجهش ، وشعرت بشوق جارف الى ان تراه، واشتهته اكثر من اي وقت آخر ، ولم تنم طوال تلك الليلة ، ومن الانصاف لكاتبنا الموهوب ان نذكر ان مشاعر حبيبته اذ ذاك لم تكن تختلف عن مشاعر الفتاة الاخرى ، كما صورها في قصته ، ماذا تفعل اذا تخلى عنها حقا ؟ وهل يفعل ؟ لقد كانت حتى الآن سيدة الموقف ، كانت تجد متعة في تعذيبه واشعاره بانه أعوبة في يدها تفعل به ما تريد ، اما الآن فقد وجدت نفسها في مأزق صعب ، لم تلمه أنه طلبها من أبيها ، بل بدا لها هذا التصرف نوعا من النبل وطيبة الخلق . ولكنها لم تلم أباها ايضا على الرفض ، انه حريص على سمعة الاسرة . وهي اشد حرصا منه ، ذلك ما لقنتها اياه التربية الارستقراطية منذ الطفولة ، واصبح شيئا في دمها . ولكن العذاب الذي عرفته هذه الليلة أشعرها بأن لهذه التربية جانبا من الضعف المخيف هو انهم لم يعلموها كيف تجابه المواقف الجديدة ، وتمنت مرارا ان تكون من دون اهل . وتصورت نفسها ـ وذلك لم يخطر لبطلة لقصة ـ احدى بنات الشارع لا أحد يلومها على ما تفعل ، وقادتها هواجس الليل الى التصميم على ان تراه ، ولم تكن تعرف لماذا ، كل ما في الامر انها شعرت بالعزلة . وفي صباح اليوم التالي تذرعت بزيارة احدى صديقاتها وذهبت الى منزله .

لم يفاجأ (ب ...) بالزيارة ، فقد كان يتوقع ان يحدث شيء ما يتفق والوقائع القصصية التي راض عليها خياله ، غير ان المفاجأة كانت في الحل الغريب الذي اقترحته نجوى وألحت عليه : أن يفرا الى العاصمة او اي مكان آخر ويتزوجا . وقد صفعته هذه الفكرة في بادىء الامر ، على الرغم من ان نجوى حرصت على اقناعه بها ، وهي في اشد مظاهر الإغراء ، العطر المثير والقبل المحمومة وما الى ذلك . وحاول ان يناقش الامر معها في هدوء وتعقل ، ولكن دموعها الصادقة كانت أقوى من كل حجة ، فرضخ في سهولة وتواعدا على اللقاء بعد أيام لوضع الخطة . ومنذ ان ذهبت نجوى شعر (ب ...) بهول الكارثة ، ولعن نفسه ألف مرة على انه انساق مع أهوائه الى هذا الحد ، لا ريب انه العطب الكامن في النفوس ، يزين لنا الحياة اولا بجميع الصور الجميلة والافكار السامية الى ان ننزلق ، وعندئذ نقف امام القدر الصارم عزلا من كل سلاح ...

وهذا القدر في نظر (ب...) هو ان لكل شيء ثمنه، المبدأ الواقعي البغيض الذي تمرد عليه في جميع كتاباته .

وكان هناك واقع لا يحتمل مثل هذه الافكار ، بل وافعان ، تمثل الاولى نجوى وحبها الدافيء والجنين والفرار ، ويلوح الثاني صورة للقدر الذي لا يقهر ، في زواج بطلي القصة ، والغريب ان الواقع الثاني كان وحده الحقيقة في نظر (ب ...) انه على الاقل ينطوي على شيء من الاختبار الحر . خيال عذب أصبح امرا راهنا . وعلى هذا النحو وجد (ب ...) ان من العار عليه ان يتراجع .

وفي احد الايام فر العاشقان ، وبذل المحافظ من الحنكة ما يعجز عنه أذكى أب لحصر المشكلة في نطاق الاسرة .

ولا نعرف كيف سويت الامور بعد ذلك ، وكان الزواج من الحوادث الاجتماعية المألوفة ...

وقبل أن يحل الخريف جاء الفصل الاخير ، كانت نجوى قد فقدت كل سحر في نظر (ب ...) وكانت أزمة قاتلة في حياته الباطنية ، كيف يخون نفسه ويتحمل الحياة ، وتحول حبه الكبير الى مجرد عطف عليها ، وعلى الطفل الذي لم يولد بعد ، واصبح هو في نظرهـــا ايضا صـــورة باهتة عن الماضي ، وأيقظ فيها شعور الامومة ثقة بنفسها ، بلغت حـــد الكبرياء . وجعلت تفكر انها كانت تستطيع ان تحصل على زوج أفضل ، وكان (ب ...) يشعر بهذا التغير في نفسيتها . ولكنه عزا كل شيء الى متاعب الحمل ، ولعله تمثل صورة الخاتمة الفاجعة التي انتهت بهـــا روايته المشهورة ، فخشي ان تتكرر في الواقع ايضا ، ولذا عزم عـــلى الصبر والاحتمال ، ولكنه مع ذلك كان يشعر بشقاء مثقل بالهـــوان ، واصبحت الهواجس القلقة خلاصة حياته اليومية ، فكان لا يفتأ يـــردد بينه وبين نفسه : « كيف كنت فريسة حمقاء الى هذا الحد ؟ لقد فقدت كل صفاء ، ولم أعد قادرا على كتابة حرف ! .. اية نهاية عجيبة قدرت لك ايها الكاتب المسكين : حادثة واحدة تذلك وتقضي عليك .. » . وما الى ذلك من الخواطر السوداء اليائسة ..

وخطر له اكثر من مرة ، ان يضع حدا لهذا المصير ، والغريب ان مخيلته الرحيبة ألهمته صورة معقدة في هذا المجال : أن ينتظـــر ولادة الطفل ، فيأخذه ثم ينفصل عن نجوى ، ولكن ماذا يفعل به ؟ .. لقـــد اجاب بحل اكثر تعقيدا ، هو ان يتزوج امرأة اخرى بعد ذلك لكي تربـي الوليد ، من خلال هذا المخطط العجيب ، تحدث مرة الى نجوى ، قـــال لهـــا :

ـ لا اعرف لماذا افكر كثيرا بمتاعبك ، يا نجوى ، ألا ترين انك مـــا زلت أصغر من ان تكوني أما ؟ ..

فأجابته في جفاء :

ـ ماذا يعنيك انت في هذا الامر .. ما قيمة الحيـــاة مـــن دون اطفال ؟ .

وصدمه هذا الجواب ، لم يكن يتوقع ان تتمسك بالطفل الى هذا الحد ، فقال في نفسه : « ها أنتذا تزداد غباء في فهم الحياة .. »

وانبثقت في ذهنه فكرة جديدة : لماذا لا يحاولان التخلص من الطفل قبل الولادة . وفاتح نجوى بالامر متذرعا بما يساوره من القلق عـــلى صحتها وحياتها ، فصاحت في وجهه باحتقار :

ـ لم أكن اعرف انني تزوجت وحشا . والمدهش انه انكب عـــلى يديها يقبلهما في اعتذار خانع ..

ولكنه ما لبث ان عاد الى افكاره القاتمة ، فبلغ به الامر ذات يـــوم ان فكر بالجريمة : ماذا لو استطاع ان يتخلص منها بوسيلة ما .. لكم تبدو الحياة بعد ذلك طليقة هادئة ! ومنذ ان سيطرت عليه هذه النزوة الشيطانية ، بدأ اضطرابه الداخلي يتجلى في كلماته وحركاته وسلوكه .

وقبل ان يحل الشتاء شاع في المدينة ان (ب ...) يعاني مرضا غامضا لا شفاء منه .. وهو الاسم المهذب في مجتمعنا للازمات النفسية المستعصية . وكان من مظاهر هذا المرض ان (ب ...) اصبح ينفـــر من الناس ، وقلما يتحدث مع أحد الا في حنق وشجار . وهيمنت عليه فكرة واحدة ، كانت تدور حولها جميع أحاديثه ، هي ان الحياة قذرة ، والناس فيها مثل العناكب السامة التي تمد خيطانها السوداء للاذى ...

واشتهر (ب ...) في المدينة بهذا المظهر المريض ، اكثر ممـــا اشتهر بجميع مؤلفاته القيمة . ثم توج هذه الشهرة بموته الفاجع ، ففي ذات يوم ، شرب السم ، تماما كما فعل سقراط ، ولم يترك الا وصيـــة صغيرة قال فيها انه آثر الذهاب لكي تعيش زوجته الحبيبة ووليدهـــا المنتظر ، في أمان من الاقاويل الخبيثة ...

والواضح انه في هذا العمل الاحمق ، لم يستلهم خاتمة روايتـــه المشهـــورة .

دمشق — صدقي اسماعيل

صدر عـــن :

دار الطليعة للطباعة والنشر

ص.ب ١٨١٣ ـ تلفـون ٢٥٧١٧٨

*

حين فقـــدنا الرضـــا

رائعة جون شتاينبك الجديـــدة

ترجمة سميرة عزام

التلميذ والدرس

تأليف مالك حـــداد

ترجمة الدكتور سامي الجندي

نموذج للادب الثوري الجزائري

وجهـــا الحيـــاة

تأليف البير كامو

ترجمة الدكتور سامي الجندي

ثلاثة كتب في كتاب واحد

ثـــائر محتـــرف

تأليف مطاع صفدي

الفتح القصصي الذي ارتفع بالقصة العربية ذات الفكرة الى مستوى عالمي جدير بالاعجاب والتسجيل

صـــمت البحـــر

تأليف فيركور ـ ترجمة وحيد نقاش

القصة التي جعلها جان بول سارتر عمادا لاروع فصل نقدي صدر عنه في تحديده للادب

نهـــر الرمـــاد

خليل حاوي — الطبعة الثالثة

الملحمة الكبرى في الشعر العربي الحديث ، أضيف اليه نشيدان وأعيد النظر في بعض الاناشيد السابقة .